

الفكر اللغوي الجديد(*)

للدكتور تمام حسان

بسم الله الرحمن الرحيم،
اللغة لفظ ومعنى، ولكل من اللفظ
والمعنى نموه وتطوره، إما على نحو
تراكمي حيناً وإما على نحو تجديد
حيناً آخر عبر توالي الأزمنة. ولقد كان
الإنسان مصدراً لهذا التراكم وذلك
التجدد، وكان من طبيعة علاقة ذلك
باللغة أن يصيب اللغة في كل عصر
سواء من حيث اللفظ أو من حيث
المعنى قدر من التغير إيجاباً أو سلباً.
وكان الفكر الجديد في الحالين إما أثراً
من آثار التحول التراشي الذاتي، وإما
غاية من غايات التفكير الإنساني؛ إذ إن
هذا التفكير هو مصدر الفكر اللغوي
الجديد، وهو موضوع هذا البحث. ومن
المقبول طبعاً أن يكون الفكر اللغوي
المقصود بما نقوله هنا منصّباً في
معظمه على تاريخ اللغة العربية، لا
ينحرف عنه إلا لسبب يدعو إلى

الانحراف على نحو ما سيعرض في
تناول بعض الظروف التي توجد في
موضوع هذا الفكر اللغوي الجديد.
دعنا نحدد نقطة التحول من القديم
إلى الجديد في الفكر اللغوي العربي بما
كان من عودة المبعوثين الذين أرسلهم
محمد علي باشا إلى باريس في أثناء
استقلاله بحكم مصر، وما كان لهؤلاء
المبعوثين من أثر في نقل بعض صور
النشاط العلمي والفني إلى مصر، ثم ما
كان لذلك من أثر في ترجمة العلم إلى
العربية، وفي ارتجال الفكر على حد
سواء. كان موروث التراث عند هذا
الحد يتمثل في الثروة التي يحافظ عليها
الأزهر الشريف من مآثور العلوم
الإنسانية والدينية. ولهذا ستكون
طريقة العرض انتقالاً مكرراً من
وصف الظاهرة اللغوية كما كانت جزءاً
من التفكير الأزهري إلى وصفها وقد

(*) أقيمت هذه المحاضرة في الجلسة الثامنة والعشرين من جلسات مؤتمر المجمع في دورته الرابعة والسبعين
ظهر يوم الأحد ٢٨ من ربيع الآخر سنة ١٤٢٩هـ الموافق ٤ من مايو (أيار) سنة ٢٠٠٨م.

أصابها قدر من التحول إلى فكر لغوي جديد.

دلالة الصوت اللغوي

ليس للصوت اللغوي في ذاته دلالة، فلا يقال مثلاً إن معنى القاف يثير في النفس معنى الشجاعة والعزة، ويختلف عن مدلول الكاف. غير أن الصوت اللغوي قد يسخر في العرف اللغوي للدلالة على مفهوم في النحو أو في غيره من علوم اللغة، ويكون ذلك عن طريق الإلحاق كما في واو الجماعة أو نون التوكيد أو ياء التكلم، أو عن طريق العلاقة السياقية كـ(واو) العطف وفاء السببية ونحو ذلك. وقد يجتمع صوتان أو أكثر فيصير مجموعهما أداة ذات قيمة من حيث الدلالة على العلاقات النحوية الأعم كما في إلا وإذ وما ولم في دلالتها حسب الترتيب على الاستثناء والسببية والنفي . . . إلخ. ولم يفرق النحويون من السلف بين الوظيفة اللاصقة والعلاقة الرابطة كما نفرق نحن الآن بينهما في الفكر اللغوي الجديد.

ورث الأزهر هذا التراث على نحو معياري لا يسمح إلا نادراً بتغيير الدلالة ولا يأذن بتغيير معنى الحرف إلا في حالات خاصة مثل استعمال واو الجماعة لتعظيم الفرد أو أن تستعمل الكاف في السببية مثل ما في عبارة: "كما ربياني صغيراً". أما في الفكر الجديد فقد كشف العلم عن وظائف للأصوات مفردة كانت أم مركبة، و لم يكن لهذه الوظائف موضع في أفكار السلف، وبخاصة إذا كان الصوت أو كانت الأداة عرضة لتعدد احتمالات المعنى أو للنقل بحسب الأسلوب، كما يلي من قوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ (يس ٣٥) يمكن أن تكون "ما" موصولة أو نافية غير أن في الآية قرينة على إرادة النفي هي قوله - تعالى - بعد ذلك:

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ فالمرء لا يشكر نفسه إن أعد طعامه بنفسه.

﴿طه ١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذَكُّرًا لِّمَن يَخْشَى ﴿طه ١: ٣﴾ أي لكن

تذكرة لمن يخشى.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِ يُؤْتِيهِ أَجْرًا

عَظِيمًا﴾ (الفتح ١٠) بضم الهاء من "عليه" للحفاظ على تفخيم اللام من لفظ الجلالة.

﴿وَالْأَرْضُ وَمَا عَلَيْهَا﴾ (الشمس ٦) تحولت الدال من "دحاها" إلى طاء للتأكيد بالقسم .

وربما خلا موقع الحرف في السياق فقل إن الحرف محذوف في هذا الموقع. ومن ذلك قوله - تعالى -

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِمْهُمْ تَحْمِيلُكُمْ عَلَيْهِمْ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾

(التوبة ٩٢). فالحرف المحذوف هو الفاء في أحد الموضعين أو كليهما ، فإما أن تقدر الفاء قبل "قلت" وإما أن تقدر بل "تولوا" أو أن تقدر في الموضعين ، ولم تسبق الإشارة إلى تعدد هذه الاحتمالات فيما أعلم . ومن قواعد الحذف أيضاً أن الفعل الذي

يتعدى إلى مفعول به إذا دلّ بلفظه على مفعوله فإن هذا المفعول يصلح للحذف كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْنِفَةُ﴾ (النجم ٥٣)

وقوله جل شأنه: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقْيَ حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (القصص ٢٣: ٢٤) وضعت علامة (*) في موضع المفعول المحذوف).

وما كان للفكر اللغوي الجديد أن يرفض هذه الأقوال التي ورثها عن السلف ولم يكن فيها ما يحول دون قبولها ودون صدقها.

الصيغة الصرفية.

ننتقل الآن إلى التعرض لتطور الفكر اللغوي في فهم تقلبات الصيغة الصرفية والميزان الصرفي في اللغة العربية كما عرفهما السلف، ثم ما رآه فيهما المحدثون أصحاب الفكر اللغوي

الجديد. وضع السلف للأسماء والصفات والأفعال (وهي المعروفة بالمشتقات) صوراً أصلية يسمى كل منها (أصل الوضع) يمكن أن يعدل عنها وأن ترد إلى صورتها الأصلية تبعاً لقواعد صاغها النحاة. وتتم كل درجة من درجات العدول بقاعدة خاصة، فإذا تم الوصول إلى آخر الدرجات سميت النتيجة وزناً للكلمة أو زنتها. أما صور العملية من أولها إلى آخرها فتعرف بلفظ "صيغة". وهناك أيضاً أصل الاشتقاق وأصوله ثلاثة تسمى فاء الكلمة وعينها ولامها، وقد تضاف إليها زوائد من الحروف يجمعها قولك "سألتمونيها". هذا ما استقل به النحاة وأصبح فكراً لغوياً تقليدياً قديماً. ونستطيع أن نضرب لذلك مثلاً كما يلي في تصريف الفعل "تلبلون":

اللفظ : تلبلون (بضم الواو ومدها

وفتح نون الرفع وتشديد نون التوكيد)

* تحذف نون الرفع لكرامية توالي الأمثال.

* يلتقي عندئذ ساكنان هما واو المد

والعنصر الأول من نون التوكيد المشددة.

* تحذف واو المد بسبب التقاء الساكنين، وتبقى الضمة على الواو بعد حذف المد.

* النتيجة: لتبلون بضم الواو وتشديد النون.

أصر الفكر اللغوي القديم على أن حروف الزيادة يجمعها قولك "سألتمونيها"، ولم يعترف بظاهرة أخرى تأذن لكل حرف من حروف العربية أن يقع موقع الزوائد في الصيغ الصرفية. ولقد سبق لي أن نبهت القارئ لكتابي "مناهج البحث في اللغة" (١٩٥٥م) ص ٢١٧ تحت عنوان "وسائل خلق الرباعي" إلى هذا الأمر وأوردت من أنواع الزيادة عدداً من الأنماط المختلفة للزيادة، منها المضعف، وأنماطاً أخر من الرباعي أيضاً تظهر الزيادة فيها في مواقع الأصول الثلاثة. فالمضعف نحو:

لفلف نخنخ

فتفت بصبص

مفارقة معجمية تحول دون وجود
علاقة نحوية بينهما في الكلام. هذه
المناسبة وتلك المفارقة كانتا موضع
تفكير من النحاة والبلاغيين على حد
سواء. ظهر ذلك النوع في الفكر
النحوي في عبارات مأثورة كقولهم:
"لا يضاف الشيء إلى ما في معناه،
ولا يخبر عن الشيء بلفظه" ولدى
البلاغيين في عبارات من قبيل قولهم:
"إسناد اللفظ إلى من هو له" أو "إسناد
اللفظ إلى غير من هو له". كما كان
لغير هؤلاء وأولئك من السلف شعارات
تشبه ذلك وتظل عامة غير مفصلة مثل
قول المفسرين: "القرآن يفسر بعضه
بعضاً" وكلام النقاد عن "ظلال
المعاني" ونحو ذلك. وكان من نتائج
هذا العموم في دلالة هذه العبارات
ندرة تطبيق هذه الشعارات القيمة
إلا في أساليب علم البيان التي تبني
هذه المفاهيم على مبدأ نقل المعنى.
فكان لا مفر من انتظار أن يوجد
الزمان بمن يعثر لهذه المبادئ على
التطبيق الأمين.

رجرج لملم
شمشم كشكش
حكحك حفحف
وأمثلة أخرى غيرها. وأما الزيادة في
مواقع الأصول الثلاثة فكما يلي:
دحرج (زيادة الحاء).
بعثر (زيادة العين).
سقلب (زيادة السين).
عربد (زيادة الباء).
زغرد (زيادة الزاي).
هذا الاتجاه جزء من الفكر اللغوي
الجديد .

مفردات المعجم.

نصل بعد ما سبق إلى المفردات
المعجمية، وهي تمثل ثلاثة أنواع من
أقسام الكلم هي: الأسماء والصفات
والأفعال، ومن علاقات هذه
الأنواع بعضها ببعض ينشأ نظام
المعجم الذي تحكمه المناسبة والمفارقة
بين المعاني. والملاحظ في كل قسم من
هذه الأقسام أن بين كل لفظ من ألفاظه
وألفاظ الأقسام الأخرى إما مناسبة
معجمية تسمح بورودها معاً وإما

ولم يبخل الزمان بظهور أجيال هنا وهناك في أرض الله تعمل على تطبيق هذه الأفكار القيمة، إما في حقل الاستعمال وإما بالتنظير. فمن قبيل الاستعمال الاتصال بواسطة اللغة، ومن قبيل التنظير أن رفض الإخبار عن الشيء بلفظه لا يحول دون التأويل ودون تطبيقه على مثل قولنا: الشرق شرق والغرب غرب ولا يلتقيان، فنرى أن العبارة توحى بمعنى سليم. فالمبتدأ في العبارة إقليم جغرافي والخبر عادات وتقاليد، أي أن الإخبار هنا لم يكن بذاته عن ذاته .

وأما الشعر العظيم الذي يقول إن القرآن يفسر بعضه بعضاً فإن معناه أوسع مما يشير إليه لفظه فهو يصدق على النصوص بكل صورها. فلقد كانت نشأة علم لغة النص بما يشتمل عليه من معايير نصية نعمة أنعم الله بها على أفهام البشر، وبخاصة مبدأ معيار السياقين: سياق النص وسياق الموقف . وإذا أذن لي

السادة العلماء السامعون أن أسوق بعض الشواهد التي تدل على صدق ما أقوله فإنني سأورد الشواهد المذكورة من القرآن الكريم؛ لا لأطعن في موقف المفسرين الذين اجتهدوا قدر طاقتهم حتى وصلوا إلى ما أتاحه لهم عصرهم ، ولكن لأبين أن القرآن الكريم ما يزال يتطلب المزيد من الفهم ومن الفكر اللغوي الجديد. وفيما يلي بعض الشواهد:

* قال تعالى : ﴿ وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَّقَتْ الْأُتْرُبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِوَيْهَمَ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٢٤) وَأَسْبَقَ الْأَبَّابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْأَبَّابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢٥) قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ

وكانت شهادته في صورة تفكير صامت وسبر وتقسيم على نحو ما رأينا.

* والشاهد الآخر من سورة القصص، وذلك قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (القصص: ٢٩)

لفظ "تصطلون" يدل على أن الرحلة كانت في الشتاء، لأن الناس لا يصطلون في الصيف ولم يذكر أحد من السلف هذه الملاحظة.

* والشاهد الثالث يجمع بين سورتي (هود) و(التحريم).

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَزْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤١﴾ ۖ قَالَ سَاوِئْتَ إِلَيَّ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ۖ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٢﴾ ۖ وَقِيلَ يٰأَرْضُ ائْبَلِي ۚ ﴾

مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٤٣﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّارَةً قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٤٨﴾ (يوسف ٢٣ : ٢٨).

قوله تعالى: ﴿ أَلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا ﴾ التي هو في بيتها" تكريم ليوسف وامتهان لها لأنه لم يقل "سيدته".
قوله: "إنه ربي" يقصد "سيدي" أي العزيز.

والدليل أن العزيز قال لامراته: "إن كيدكن عظيم" وأن يوسف استشهد بذلك عندما دعي لمقابلة الملك، وذلك قوله عن العزيز: "إن ربي بكيدهن عليم".

قوله "لولا أن رأى برهان ربه" أي أحس بوجود سيده العزيز أمام البيت حتى إنهما وجداه عند نهاية استباق الباب "ألفيا سيدها لدى الباب".

قوله "قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلا أن يسجن أو عذاب أليم". هذا تحريض للعزيز ضد يوسف وتبرئة لنفسها.

قوله "وشهد شاهد من أهلها" هو العزيز

مَاءَكِ وَيَسْمَاءُ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ
وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
(١١) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي
وَلَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (١٢) قَالَ
يَسْأَلُكَ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا
تَسْأَلُنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ
الْجَاهِلِينَ (١٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْكَكَ
مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ
مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤) قِيلَ يَنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا
وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ
سَنُعَذِّبُهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ أَلِيمٌ (١٥)

وقال في سورة التحريم (١٠):

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ
وَأَمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا
صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ
شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِخِينَ (١٠) ﴾

انظر إلى دلالة الألفاظ الآتية
وحاول أن تستخلص المعنى (أو على
الأصح: ظل المعنى) مما يلي:

* فخانتاهما.

* ليس من أهلك.

* إنه عمل غير صالح.

* فلا تسألن ما ليس لك به علم.

* إني أعظك أن تكون من الجاهلين.

يبدو أن نوحًا لم يكن يعلم بمحتوى قوله
تعالى: "فخانتاهما" حتى أخبره الله
سبحانه بما ورد في سورة هود
من المصارحات التي لم يكن لنوح
علم بها.

ومن ذلك أيضًا مثالان آخران لاختيار
اللفظ المناسب والعزوف عن استعمال
غيره الذي ورد في سياق آخر مماثل
كما يلي:

السياق الأول: قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقُولُوا أَوْلَدَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ
نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ (الأنعام ١٥١)

﴿ وَلَا تَقُولُوا أَوْلَدَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ
وَإِنَّا كَرِيمُونَ (٢١) ﴾

(الإسراء ٣١)

لاحظ أن الإملاق واقع على الآباء
في الآية الأولى فوعدهم الله
بالرزق لهم، وأن الإملاق منتظر فقط
في الآية الثانية فجاء الوعد برزق

الأبناء.

السياق الثاني: قوله تعالى:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٨) فَادَّاتُهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾

(آل عمران ٣٨)

لاحظ هنا كيف كان العمل عند نسبته إلى لفظ الجلالة من قبيل الفعل في حق الرجل، ومن قبيل الخلق في حق المرأة بسبب المناسبة في اختيار اللفظ. هذا النوع من الملاحظات ينتمي إلى الفكر اللغوي الجديد.

﴿وَلَنَجْذِثُنَّهُمْ أَهْرَاصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوَةٍ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَزَّحٍ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة ٩٦).

ولقد سبق أن ذكرنا أن من الفكر

اللغوي ما رده علماء السلف على صورته المجملنة ولم يحاولوا أن يمنحوه دراسة مفصلة إلا في بعض ظواهر علم البيان عندما تكلموا عن ظاهرة النقل، ووجه الشبه، ولازم المعنى ونحو ذلك مما تقدم به علماء أصول النحو، ونقاد الشعر في هذا المجال. أما الجديد في دراسة الفكر اللغوي فهو البناء على ما تركه الأقدمون وتوسيع الأفق في هذا المجال على نحو ما نسوق لذلك من عدد من الشواهد. ومن هذه الشواهد ما يلي من أنواع الظلال:

١ - السؤال الوارد:

قال تعالى في شأن يوم الحساب: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ (٢١)

السؤال هو: كيف ذلك واليوم يوم حساب؟

﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ (٤١) ﴿الرحمن: ٤١﴾

٢ - جواب الاستفهام الإنكاري:

﴿أَلَمْ يَحْذَرَكَ يَتِيمًا فَاوَىٰ﴾ (١) ﴿الضحى: ٦﴾

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ۝﴾

(الرعد ٥).

١٤ - قد يأتي السبر والتقسيم ظلاً

للشرط:

﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ. وَإِنْ يَكُ

صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۝﴾

(غافر ٢٨)

١٥ - قد يكون التمني ظلاً للشرط:

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ

۝﴾ (هود ٨٠)

١٦ - قد تكون التسوية ظلاً للشرط:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا

۝﴾ (الإنسان ٣)

١٧ - قد يأتي التعجب ظلاً للنداء:

﴿يَبْشُرِي هَذَا غُلَامٌ ۝﴾ (يوسف ١٩)

١٨ - قد تأتي الندبة ظلاً للنداء:

﴿يَا سَفَىٰ عَلَىٰ يَوْسُفَ ۝﴾ (يوسف ٨٤)

١٩ - قد يأتي الاختصاص ظلاً للنداء:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَتَيْنَا الْمَكِيدُونَ ۝﴾ (الأنعام ٥١)

مِنْ زُفُورٍ ۝﴾ (الواقعة ٥١ : ٥٢).

٢٠ - قد يأتي التمني ظلاً للنداء:

﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ۝﴾

(القصص ٧٩)

على الرغم من أن الشواهد التي اشتمل عليها هذا العرض مأخوذة من النص القرآني الكريم، فلا يمكن أن يكون من العسير على أحد أن يطلع عليها، أقول: على رغم ذلك لم ير السلف من العلماء ما يؤلف بينها ويجمعها تحت عنوان واحد هم واضعوه ومستعملوه وهو "ظلال المعاني"، فتناولوها مفرقة لا يجمع بينها نظام، ولكن الفكر اللغوي الجديد وفق بينها كما يبدو هنا.

هذا ما استطاع الفكر اللغوي أن يصل إليه، وهناك أنواع أخرى من الفكر الجديد تنتمي إلى حقول علمية أخرى يزخر كل منها بما أنجزه من المصطلحات والآراء والرؤى فكان لهذه الأفكار فضلها الذي لا ينكر على حقل اللغة أيضاً.

أ.د. تمام حسان

عضو المجمع